نقد الخطاب الديني عند عباس محمود العقاد

الأستاذ الدكتور/ محمد رفيق خليل

أستاذ الجراحة العامة بكلية الطب – جامعة الإسكندرية
ونقيب الأطباء

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

لم يتسع مجال الكتابات الإسلامية عند واحد من المفكرين المعاصرين مثلما حدث مع أستاذنا العقاد، فنحن نجد ما ينيف على الثلاثين كتابا متعلقا بالدراسات الإسلامية، بالإضافة إلى العبقريات الإسلامية، وغيرها من الكتب التي قد نعتبرها أقرب إلى الدراسات التاريخية، وإن احتوت مضامين إسلامية.

ومن أهم كتبه التي تحمل خطابا دينيا إسلاميا واضحا كتب "التفكير فريضة إسلامية" "الله" "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه" و"الفلسفة القرآنية" " و" الديمقراطية في الإسلام " و" الإسلام في القرن العشرين"، وغيرها كثير.

ولذا فمن العسير الإلمام بكل عناصر الخطاب الدينى لدى العقاد، فسأوجز عددا قليلا من العناصر، وهى الأهم من وجهة نظري لارتباطها بالحياة المعاصرة وبالمناحي المستحدثة في بعض أنماط الخطاب الديني التي طرأت على مجتمعاتنا العربية، والتي تقلل من أهمية العقل في مواجهة النقل، ولذا فأول عناصر الخطاب الديني للعقاد هو كما يلي:-

١- إعلاء العقل:

يقول العقاد في كتابه "التفكير فريضة إسلامية" إن خطاب العقل الوازع الذى يحول بين صاحبه وما يشتهيه على أساس أخلاقي) لا في العقل المدرك، ولا في العقل المفكر المتأمل الذى يؤدى الى الحكم الصحيح / ولكن في كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة.

والدين الإسلامي لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق، ولا يفرض على الإنسان قربانا، ولذا فخطاب الإسلام لعقل الإنسان حر طليق من سلطان الهياكل، والحكام، ورجال الدين.

وحين يكون العمل بالعقل أمراً من أوامر الخالق، يمتنع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله أو خوفاً منه، ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال، ولهذا فالعقاد يرى أن سلطة بعض الجماعات الدينية قد يكون لها ما نراه الآن عند البعض من إرهاب فكرى ضد إعمال العقل وخاصة عندما يكون الخطاب باسم الحفاظ على تراث السلف، ومن هذا يقول العقاد: " أكبر الموانع في سبيل العقل عبادة السلف التي تسمى بالعُرْف، والاقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدينية. والإسلام لا يقبل من المسلم أن يلغى عقله ليجري على سنة آبائه وأجداده، ولا يقبل منه

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

أن يلغى عقله لمن يسخره باسم الدين في غير ما يرضى العقل والدين، ولا يقبل منه أن يلغى عقله خنوعا ورهبة من بطش الأقوياء.

٢- آفاق العقل منطلقة في حدود الإيمان: -

يتوجه العقاد مباشرة في خطابه الديني المرتبط بالعقل إلى ما يتوجب على المسلم اعتناقه وهو الإيمان، فإذا كان الإيمان راسخا واضحا، فلا خوف على العقل من الشطط. يقرر العقاد في كتابه "الله" أن الإيمان يحتاج إلى حاسة في الإنسان غير العلم بالشيء الذى هو موضوع الإيمان، وقد تتساوى نفسان في العلم بحقائق الكون كله، ولا تتساويان بعد ذلك في طبيعة الإيمان، لأن الإنسان لا يؤمن على قدر علمه، وإنما يؤمن على قدر شعوره بما يعتقد ومجاوبته النفسية لموضوع الاعتقاد.. التلازم بين الوعى الكوني والحاسة الدينية.. هذا الوعي الكوني تسامى إلى إدراك الله والإيمان به.

يقول العقاد في كتابه "إبراهيم أبو الأنبياء: "إن الإنسان ارتفع كله حين رفع عبادته من الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة، وحين أصبحت صاحبة المعبود شيئا أرفع من مطالب الأبدان وضرورات الغرائز والطباع، كان أقل من الطبيعة فأصبح أعظم منه، أصبح له كيانه الأدبي في وجهها". ونلمس من هذا أن العقاد في خطابه الديني يرى أن الإيمان الحقيقي هو الأساس الأول لتوجه الإنسان في مجالات العلم والمجتمع، بل في علاقته بالنظم السياسية والسلطات (وشبه السلطات) الدينية، حيث إن العبودية لله الواحد تستوجب حرية الإنسان الذى لا يجب أن يكون عبدا لغير الله.

٣- الخطاب الديني بين النقل والعقل.

نأتى إلى هذه النقطة الشائكة حيث يرى الكثير من الباحثين أن كافة ألوان قوس قزح في الخطاب الديني تتمحور حول قطبين يمثل أحدهما الإمام أبو حامد الغزالي الذى يميل الى تقليل دور العقل إزاء التقيد بحرفية النص دون تأويل.. وذلك جلي في إنكاره للفلسفة في كتابه "تهافت الفلاسفة"، وحصره للعلوم في علوم الدين فقط، واعتبار غيرها من العلوم الدنيوية فنوناً لا علوما. "كتاب إحياء علوم الدين"، ويدور حول القطب نفسه كثير من مفكري الإسلام الدامي مثل أبو تيمية، وابن حزم الأندلسي، ومحمد بن عبد الوهاب، ومن حذا حذوهم.

أما القطب الثاني فخير ممثل له ابن رشد، الذى دعا إلى إعمال العقل إلى أقصى مدى دون التفريط في أساسيات الدين، يبدو ذلك جليا في كتابيه: "تهافت التهافت" و"فصل المقال

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

فيما بين الشريعة والحكمة من إتصال"، وحول هذا القطب يدور الخطاب الدينى لفلاسفة سبقوه كالفارابي وابن سينا، والمعتزلة، ومفكرين معاصرين كمحمد عبده، وحسن حنفى.

اين يقع الخطاب الدينى للعقاد بين هذين القطبين؟...

العقاد في الواقع أقرب للقطب الثانى، أي إلى الأخذ بالعقل والعلم والفلسفة. إلا أنه لا يعادى مفكري القطب الأول، بل إنه يدافع عنهم ويتخذلهم الأعذار، ولهذا فهو في دفاعه عن المنطق يضع تفرقة دقيقة بين المنطق والفلسفة، المنطق الذى يبحث عن الحقيقة من طريق النظر المستقيم والتمييز الصحيح، والسفسطة أو الجدل الذى يبحث عن الغلبة والإلزام بالحجة كغاية..

يقول العقاد عن الغزالى إنه كان يخشى فتنة الجدل (لا المنطق) على الثراثرة المتحذلقين كما يخشاها على العامة المقلدين، أما عن موقف ابن تيمية فهو شبيه بموقف الإمام الغزالى، لكنه يرى أن المنطق سليقة في العقل الإنسانى، يستغنى عنه الذكى ولا ينتفع به البليد إذا جاء على غير سليقة واستعداد، وفى موضع آخر نجد العقاد ينقل عن ابن تيمية من كتابه "نقص المنطق" أو "إنك تجدهم أعظم الناس شكا واضطرابا وأضعف الناس علماً" ويقينا هذا رأى ابن تيمية وأتباعه في المناطقة والفلاسفة، كما وضحه الأستاذ العقاد في كتابه "التفكير فريضة إسلامية".

في حديثه عن الفلسفة يقرر في كتابه "ابن رشد" أن دور الفلسفة في الدول التي تنشأ فيها سلطة دينية يتوارثه كالسلطة السياسية،هذه السلطة لاتسمح لأحد بأن يزاحمها في مباحث العقيدة، وما وراء الطبيعة، والأخلاق، أما في الإسلام فالدولة قامت بغير كهانة، ولذا فكانت أرحب الدول صدراً وأسمحها فكراً مع الفلسفة على عمومها، وبينما اضطهدت السلطات الدينية في اوروبا وغيرها الفلاسفة في الإسلام لا بسبب أفكارهم، وإنما لأسباب سياسية في بعض الأحيان، كما في حالة ابن رشد، ويصدق هذا على قبول الحضارة الإسلامية للفلسفة اليونانية، ويصدق من باب أولى على الفلسفة الإسلامية، فلم تنقطع بحوث المعتزلة وعلماء الكلام لغير علة من علل السياسة لا تلبث أن تزول بزوال المعتلين بها، وقد طرق المعتزلة وعلماء الكلام كل باب مغلق من أبواب الأسرار الدينية التي عليها الكهانة القوية في الديانات الأولى، فنظروا في العقيدة الإلهية، وفى أصول الخلق، ووجود العالم، ووجود النفس.

يتضح اهتمام العقاد بالعقل والفلسفة في خطابه الدينى في تخصيصه كتابين لاثنين من أهم منظري هذا الخطاب وهما ابن سينا وابن رشد. يرى العقاد أن آبا نصر الفارابي وأبا

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

على ابن سينا في المشرق، وابا الوليد ابن رشد في المغرب (الأندلس) كانوا أهم من استوعب مسائل الفلسفة،ويرى أن الفارابي وتلميذه ابن سينا قد بلورا فلسفة الأفلاطونية الحديثة بصورة إسلامية، فأصبح الوجود ثلاث مراتب: أولها الوجود الإلهي وثانيها وجود العقول المتدرجة، وثالثها وجود العقل الفعال، ومن هذا نفهم كيف تعددت الكثرة عن الواحد، وكيف جاءت الصلة بين المعانى المجردة والمحسوسات (كتاب الشيخ الرئيس ابن سينا).

أما عن ابن رشد، فيكشف العقاد في كتابه عنه المسائل التي ثار حولها الخلاف بين الفلاسفة والفقهاء بعد عصر الفارابي وابن سينا، وكان أكثرها خلافا على التعبير دون المعاني الجوهرية، ويدور كله في مسائل أربع هي قدم العالم، وعلم الله بالجزئيات، وصفات الله، وخلود النفس بعد الموت، وقد فسر ابن رشد المسائل الأربع بطريقة تعتمد على الإيمان الإسلامي خاصة فى المسألة الأخيرة، حيث إنه يؤمن ببقاء الروح الإنساني، حيث يبقى عالم الروح كله، فهو ليس من الفلاسفة الماديين، لأن هؤلاء لا يؤمنون بروح الإنسان فى هذا العالم أو فى عالم آخر.

٤ - العلم:

يقرر العقاد فى كتابه "التفكير فريضة اسلامية " أن العلم الذى أمر به القرآن الكريم هو جملة المعارف التى يدركها الإنسان بالنظر فى ملكوت السموات والأرض، وما خلق من شىء، ويشمل الخلق هنا كل موجود فى هذا الكون ذى حياة أو غير ذى حياة، وهو فى هذا يختلف كثيراً مع أبى حامد الغزالى الذى يصر على قصر كلمة العلم على علوم الدين فقط، يقول العقاد: "إن العلم فى الإسلام يتناول كل موجود، وكل ما يوجد فمن الواجب أن يعلم، فهو علم أعم من العلم الذى يراد لأداء الفرائض والشعائر، لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام، إذا فإن خير عبادة الله أن يهتدى الإنسان إلى سر الله فى خلقه، وأن يعرف حقائق الوجود فى نفسه ومن حوله".

ومن هذا نفهم أن العقاد يحذر من التفريط فى العلم، لكن الجدير بالإعجاب أنه حذر أيضا من الإفراط.. حيث يحذر من محاولة التوفيق بين القرآن الكريم وبين مكتشفات العلوم الحديثة , وما درج بعض المحدثين على ما أسموه بالتفسير العلمي للقرآن، وما سُمي بأسلمة العلوم. يقول العقاد: "من الحق أن نعلم أن كتابنا يأمرنا بالبحث والنظر والإحاطة بكل معلوم صدر عن العقول، ولكن ليس من الحق أن نزعم أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب مندرج فى ألفاظه ومعانيه، فإن كثيراً من آراء العلماء التي يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يُحسب من النظريات التي يصح منها ما يصح ويبطل

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

منها ما يبطل، ولا نستغنى على الدوام عن التعديل وإعادة النظر من حين إلى حين، "ويرد على من يقولون إن القرآن الكريم حاو لكل العلوم كما قال الله سبحانه في سورة الانعام: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) إن الكتاب المقصود هنا ليس القرآن الكريم ولكن اللوح المحفوظ، طبقا لما اتفق عليه أغلب المفسرين، ومن بينهم ابن كثير والله أعلم، وفوق كل ذي علم عليم.

٥- الاجتهاد

نتطرق فى ختام الحديث عن الخطاب الديني عند العقاد إلى درب شديد الوعورة، وهو الحديث عن الاجتهاد وقد ناقش العقاد هذا الأمر فى كتابه القيم "حقائق الإسلام وأباطيل خصومه"، خاصة حين درج لتفسير اجتهاد عمر بن الخطاب فى إلغاء سهم المؤلفة قلوبهم رغم وجود نص فيقول: "ومن سوء الفهم أن يقال إن الفاروق خالف النص فى هذه القضية، وإنما يقال إنه اجتهد فى فهم النص كما ينبغي، وإنه بحث عن المؤلفة قلوبهم فلم يجدهم، لأن تأليف القلوب إنما يكون مع مصلحة للإسلام والمسلمين، فإن لم يكن تأليف لم يكن هناك مؤلفة يستحقون العطاء"، وكذلك تفسير أن عمر بن الخطاب أسقط قطع اليد عن السارق فى عام المجاعة، فإنه فى الواقع عمل بالنص فلم يقم الحد فى غير إثم، ولا إثم مع الاضطرار.

ولذا فالعقاد يرى أن مجال الاجتهاد مفتوح بكافة أبوابه مثل القياس، والاستحسان والمصالح المرسلة، فيقول: "إن من آباح لنفسه أن يحرم على الناس نعمة العقل والعلم الى آخر الزمان، فقد اجتهد برأيه اجتهادا أبعد فى الدعوى من كل ما يدعيه المجتهدون على حق أو على باطل، فإنه يلغى أوامر الله لعباده، حيث يتحرى المجتهدون أن يبتغوا الوسيلة إليها، فهو ينهى الناس برأيه عما أمرهم به الله، واجتهدوا قادرين أو عاجزين أن يطيعوه، وليس التفكير فى الإسلام عوضاً عن النص أو ما يشبه النص فى الأحكام، بل هو فريضة منصوص عليها، مطلوبة لذاتها، ولما يتوقف عليها من فهم الفرائض الأخرى، وكلها محظور على المسلم أن يهملها، وهو قادر على النهوض بتكاليفها غير مضطر إلى تركها، فإن من تركها لغير ضرورة، فهو مقصر محاسب على التقصير.

والله أعلم وفوق كل ذى علم عليم.

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com